

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٢ - سورة السجدة

سميت بها ، لأن آية السجدة منها ، تدل على أن آيات القرآن من العظمة بحيث تخرّ وجوه السكل ، لسماع مواعظها ، وتنزه منزلها عن أن يعارض في كلامه . وبشكره على كمال هدايته . وهذا أعظم مقاصد القرآن ، أفاده المهايى . وهى مكية ، وآياها ثلاثون .

روى البخارى^(١) فى (كتاب الجمعة) عن أبى هريرة قال : كان النبى ﷺ يقرأ فى الفجر ، يوم الجمعة ، آلم * تنزيل السجدة ، وهل أتى على الإنسان .

ورواه مسلم^(٢) أيضا .

وروى الإمام أحمد عن جابر قال : كان النبى ﷺ لا ينام حتى يقرأ الم . تنزيل السجدة ، وتبارك الذى بيده الملك .

قال ابن كثير : تفرد به أحمد رحمه الله تعالى .

(١) أخرجه البخارى فى : ١١ - كتاب الجمعة ، ١٠ - باب ما يقرأ فى صلاة الفجر يوم الجمعة ، حديث ٥٢٢ .

(٢) أخرجه فى : ٧ - كتاب الجمعة ، حديث رقم ٦٥ و ٦٦ (طبعنا)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الَمْ)

[٢] (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[٣] (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ، بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ)

«الَمْ» تقدم أن هذه الفواتح أسماء للسور «تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ» أى فى كونه منزلا «مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ» أى اختلقه من تلقاء نفسه «بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ» أى يتبعون الحق . وذلك أن قريشا لم يبعث إليهم رسول، قبله ﷺ . فلطف تعالى بهم وبعث فيهم رسولا منهم ﷺ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ

عَلَى الْعَرْشِ، مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ، أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ)

[٥] (يَذِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ)

«اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى

الْعَرْشِ «تقدم الكلام في ذلك» مَا لَكُمْ مِّنْ دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ «أى ما لكم عنده ناصر ولا شفيع من الخلق» أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ «أى تعظون بالقرآن فتؤمنوا» يُدِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ «أى يدبر أمر الدنيا بأسباب سماوية ، من الملائكة وغيرها ، نازلة آثارها وأحكامها إلى الأرض» ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ «أى يصعد إليه، أى مع الملك للعرض عليه» فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ «أى مقدار صعوده على غير الملك، ألف سنة من سنى الدنيا .

قال ابن كثير : أى ينزل أمره من أعلى السموات إلى أقصى تخوم الأرضين . كما قال تعالى (١) (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ) الآية . وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق السماء . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (ذَٰلِكَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

[٧] (الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَنِ مِن طِينٍ)

[٨] (ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ)

[٩] (ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ، قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ)

« ذَٰلِكَ » أى الدبر « عِلْمُ الْغَيْبِ » أى ما غاب عن العباد وما يكون « وَالشَّهَادَةِ » أى ما علمه العباد وما كان « الْعَزِيزُ » أى الغالب على أمره « الرَّحِيمُ » أى بالعباد فى تدبره « الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ » أى أحكم خلق كل شىء . لأنه ما من شىء خلقه إلا وهو مرتب على ما اقتضته الحكمة « وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَنِ » يعنى آدم « مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ

نَسَلَهُ « أَى ذَرِيَّتِهِ » مِنْ سُلَالَةٍ « أَى مِنْ نَظْفَةٍ » مِنْ مَاءٍ مَّهِينٍ « أَى ضَعِيفٍ مَمْتَنٍ .
والسُّلَالَةُ الْخِلَاصَةُ . وَأَصْلُهَا مَا يَسْلُ وَيُخْلَصُ بِالتَّصْفِيَةِ « ثُمَّ سَوَّاهُ » أَى قَوَّمَهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ
« وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ » أَى جَعَلَ الرُّوحَ فِيهِ ، وَأَضَافَهُ إِلَى نَفْسِهِ تَشْرِيفًا لَهُ « وَجَعَلَ لَكُمْ
السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ » أَى خَلَقَ لَكُمْ هَذِهِ الْمَشَاعِرَ ، لِتَذْكُرُوا بِهَا الْحَقَّ وَالْهَدَى
« قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ » أَى بِأَن تَصْرِفُوهَا إِلَى مَا خَلَقَتْ لَهُ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ، بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ)

[١١] (قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ)
[١٢] (وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا
وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ)

« وَقَالُوا » أَى كُفَّارٍ مَكَّةَ « أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ » أَى صَرْنَا تَرَابًا مَخْلُوطًا بِتَرَابِ
الْأَرْضِ لَا نَتَمَيَّزُ مِنْهُ ، أَوْ غَبْنَا فِيهَا « أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ » أَى نَجِدُ بَعْدَ الْمَوْتِ « بَلْ
هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ » أَى بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ لِلْجَزَاءِ وَالْحِسَابِ « كَافِرُونَ » أَى جَاهِدُونَ .
قَالَ أَبُو السَّعُودِ : إِضْرَابٌ وَانْتِقَالٌ مِنْ بَيَانِ كُفْرِهِمْ بِالْبَعْثِ ، إِلَى بَيَانِ مَا هُوَ أَبْلَغُ وَأَشْنَعُ مِنْهُ ،
وَهُوَ كُفْرُهُمْ بِالْوُصُولِ إِلَى الْعَاقِبَةِ ، وَمَا يَلْقَوْنَهُ فِيهَا مِنَ الْأَحْوَالِ وَالْأَهْوَالِ جَمِيعًا « قُلْ » أَى
بَيَانًا لِلْحَقِّ وَرَدًّا عَلَى زَعْمِهِمِ الْبَاطِلِ « يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ » أَى يَقْبِضُ
أَرْوَاحَهُمْ « ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ » أَى بِالْبَعْثِ لِلْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ .

فائدة :

قال ابن أبي الحديد فى (شرح نهج البلاغة) فى هذه الآية : مذهب جمهور أصحابنا

أن الروح جسم لطيف بخارى يتكوّن من أطف أجزاء الأغذية ، ينفذ في العروق ، حالة فيها . وكذلك للقلب ، وكذلك للكبد .

وعندهم أن ملك الموت أعوانا تقبض الأرواح بحكم النياية عنه . لولا ذلك لتعذر عليه وهو جسم أن يقبض روحين في وقت واحد في المشرق والمغرب ، لأن الجسم الواحد لا يكون في مكانين . في وقت واحد .

قال أصحابنا : ولا يبعد أن يكون الحفظة السكاتبون هم القابضون للأرواح عند انقضاء الأجل .

قالوا : وكيفية القبض ، ولوج الملك من الفم إلى القلب ، لأنه جسم لطيف هوائى ، لا يتعذر عليه النفوذ في المخارق الضيقة ، فيخالط الروح ، التي هي كالشبيهة بها ، لأنها بخارى . ثم يخرج من حيث دخل ، وهى معه .

وإنما يكون ذلك في الوقت الذى يأذن الله تعالى له فيه وهو حضور الأجل .

فألزموا على ذلك أن يغوص الملك في الماء مع الغريق ليقبض روحه تحت الماء . فالتزموا ذلك ، وقالوا : ليس بمستحيل أن يتخلل الملك الماء في مسام الماء ، فإن فيه مسام ومنافذ وفي كل جسم . على قاعدتهم في إثبات المسام في الأجسام .

قالوا : ولو فرضنا أنه لا مسام فيه ، لم يبعد أن يلججه الملك فيوسع لنفسه مكانا ، كما يلججه الحجر والسمك ، وغيرها . وكالريح الشديدة التي تفرع ظاهر البحر فتقرعه وتحفره . وقوة الملك أشد من قوة الريح . انتهى .

والأولى الوقوف ، فيما لم تعلم كيفيةته ، عند متلوّه وعدم مجاوزته ، أدباً عن التهجم على الغيب وتورعاً عن محاولة ما لا يبلغ كنهه ، وأسوة بما مضى عليه من لم يخض فيه ، وهم الخيرة والأسوة ، والله أعلم .

«وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ» وهم القائلون تلك المقالة الشنعاء «نَا كِسُوءًا رُّءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ» أى مطأطئوها من الحياء والخزى ، لما قدمت أيديهم «رَبَّنَا» أى يقولون ربنا «أَبْصُرْنَا

وَسَمِعْنَا « أَى عَلِمْنَا مَا لَمْ نَعْلَمْ ، وَأَيُّقِنَا بِمَا لَمْ نَكُنْ بِهِ مُوقِنِينَ « فَأَرْجِعْنَا » أَى إِلَى الدُّنْيَا « نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ » أَى مُقَرَّرُونَ بِكَ وَبِكِتَابِكَ وَرَسُولِكَ وَالْجَزَاءِ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًىهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

[١٤] (فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

« وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًىهَا » أَى تَقْوَاهَا « وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي » أَى فى القضاة السابق « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » أَى سبق القول حيث قلت لإبليس ، عند قوله ^(١) (لَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُتَخَلِّصِينَ) ^(٢) (فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ) أَى فبموجب ذلك القول لم نشأ إعطاء الهدى على العموم . بل منعناه من اتباع إبليس الذين هؤلاء من جملتهم حيث صرفوا اختيارهم إلى الفنى والفساد . ومشيتته تعالى لأفعال العباد منوطة باختيارهم إياها . فلما لم يختاروا الهدى ، واختاروا الضلالة ، لم يشأ إعطاء لهم . وإنما آتاه الذين اختاروه من النفوس البرّة ، وهم العنيتون بما سيأتى من قوله تعالى ^(٣) (إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا) الآية . فيكون مناط عدم مشيئة إعطاء الهدى ، فى الحقيقة ، سوء اختيارهم ، لا تحقق القول . أفاده أبو السعود . « فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا » أَى تركتم الإقرار به ، والإيمان بصدق موعوده ، وعاملتموه معاملة النسيء المهجور « إِنَّا نَسِينَاكُمْ » أَى جازيناكم جزاء

(١) [١٥ / الحجر / ٣٩ و ٤٠] . (٢) [٣٨ / ص / ٨٤ و ٨٥] .

(٣) [٣٢ / السجدة / ١٥] .

نسيانكم . أو تركناكم في العذاب ترك النسي « وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » أى من الموبقات . والتكرير للتأكيد والتشديد . وتعيين الفعل المطوى ، للذوق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ)

[١٦] (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

« إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا » أى وعظوا « خَرُّوا سُجَّدًا » لسرعة قبولهم لها بصفاء فطرتهم ، وذلك تواضعاً لله وخشوعاً وشكراً على ما رزقهم من الإسلام « وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ » أى عن الانقياد لها ، كما يفعله الجاهلة من الكفرة الفجرة . قال تعالى ^(١) (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) « تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ » أى ترتفع وتنحى عن الفرش ومواقع النوم . والجملة مستأنفة لبيان بقية محاسنهم ، وهم المتعبدون بالليل « يَدْعُونَ رَبَّهُمْ » أى داعين له « خَوْفًا » من عذابه « وَطَمَعًا » فى رحمته « وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ » أى من المال « يُنْفِقُونَ » أى فى وجوه البر والحسنات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (فَلَا تَسْلُمُ نَفْسٌ مَّا أَخْفَى لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[١٨] (أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا ، لَا يَسْتَوُونَ)

(١) [٤٠ / غافر / ٦٠] .

[١٩] (أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[٢٠] (وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ، كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ) « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ » أى ماذخر وأعد أى لهؤلاء الذين عدت مناقبهم « مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ » أى مما تفر به عينيهم من طيبة النفس والثواب والكرامة فى الجنة « جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى فى الدنيا من الأعمال الصالحة « أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا » أى كافر اجداداً « لَا يَسْتَوُونَ » أى فى الآخرة بالثواب والكرامة . كما لم يستووا فى الدنيا بالطاعة والعبادة . ثم فصل مراتب الفريقين بقوله « أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا » أى ثواباً « بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا » وكنقوله (١) تعالى « كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا » كفاية عن دوام عذابهم واستمراره « وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ » أى يقال لهم ذلك ، تشديداً عليهم وزيادة فى غيظهم ، وتقريعا وتوبيخا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[٢٢] (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ، إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُسْتَقِيمُونَ)

« وَلَنَذِيقَنَّهٖم » أى أهل مكة « مِّنَ الْعَذَابِ الْأَذْنَى » أى عذاب الدنيا والجسد والقتل والأسر « دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ » يعنى عذاب الآخرة « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » أى يتوبون عن الكفر أى يرجعون إلى الله عند تصفية فطرتهم بشدة العذاب الأذنى، قبل الرين بكثافة الحجاب « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا » أى جردها وكفر بها « إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ » أى بالعذاب ، وإظهار المتقين عليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ ، وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ)

[٢٤] (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ)

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ » أى التوراة « فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ » أى لقاء الكتاب الذى هو القرآن . وعودُ الضمير إلى الكتاب المتقدم ، والمراد غيره على طريق الاستخدام ، أو إرادة العهد ، أو تقدير مضاف ، أى تلقى مثله ، أى فلا تكن فى مرية من كونه ؛ وحيا متلقى من لدنه تعالى . والمعنى : إنا آتيناه موسى مثل ما آتيناك من الكتاب . ولقيناك من الوحي مثل ما لقيناك . فلا تكن فى شك من أنك لقيت مثله . ونهيه ﷺ عن الشك ، المقصود به نهى أمته . والتعريض بمن صدر منه مثله « وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ » أى من الضلالة « وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا » أى قادة بالخير يدعون الخلق إلى أمرنا وشرعنا « لَمَّا صَبَرُوا » أى على العمل به والاعتصام بأوامره « وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ » أى يصدقون أشد التصديق وأبلغه . والمعنى : كذلك لنجعلن الكتاب الذى آتيناه ، هدى لأمتك ، ولنجعلن منهم أمة يهدون مثل تلك الهداية . ويؤخذ من فحوى الآية ، أن بنى إسرائيل لما نبذوا الاعتصام بالكتاب ، ونبذوا الصبر على الأمر بالمعروف والنهى

عن المنكر ، وفقدوا الاستيقان بحقبة الإيمان ، فغيروا وبدلوا ، سلبوا ذلك المقام ، وأدبل عليهم انتقاما منهم . وتلك سنته تعالى ^(١) (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ) ففي طي هذا الترغيب ، ترهيب وأى ترهيب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

[٢٦] (أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ، أَفَلَا يَسْمَعُونَ)

[٢٧] (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ، أَفَلَا يُبْصِرُونَ)

« إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ » أى يقضى « بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » أى فيميز الحق من الباطل ، بتمييز الحق من المبطّل « أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ » أى يتبين لكفار مكة « كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنَ الْقُرُونِ » أى الماضية بعذاب الاستئصال « يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ » أى منازلهم . كمنازل قوم شعيب وهود وصالح ولوط عليهم السلام . فلا يرون فيها أحداً ممن كان يعمرها ويسكنها . ذهبوا كأن لم يَغْنَوْا فيها . كما قال ^(٢) (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا) « إِنَّ فِي ذَلِكَ » أى فيها فعلنا بهم « لَآيَاتٍ » أى عبرا ومواعظ ودلائل متناظرة « أَفَلَا يَسْمَعُونَ » أى أخبار من تقدم ، كيف صار أمرهم بسبب تكذيبهم الرسل ، وبغيهم الفساد في الأرض ، فيحملهم ذلك على الإيمان « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ » وهى التى جزر نباتها ، أى قطع « فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ » يعنى العشب والثمار والبقول « أَفَلَا يُبْصِرُونَ » أى فيستدلون به على كمال قدرته ووجوب

(١) [١٣ / الرعد / ١١] . (٢) [٢٧ / النمل / ٥٢] .

انفراده بالإلهية . وهذا كآية^(١) (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا) الآية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

[٢٩] (قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ)

« وَيَقُولُونَ » أى كفار مكة « مَتَى هَذَا الْفَتْحُ » أى الانتصار علينا . استعجال لوقوع البأس الربانى عليهم ، الذى وعدوا به ، واستبعاد له « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ » لحلول ما يفشى الأبصار ويعمى البصائر . وظهور منار الإيمان وزهوق الفريق الكافر .

قال ابن كثير : أى إذا حل بكم بأس الله وسخطه وغضبه فى الدنيا والأخرى ، لا ينفع الذين كفروا بإيمانهم ولا هم ينظرون ، كما قال تعالى^(٢) (فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِّنَ الْعِلْمِ) الآيتين . ومن زعم أن المراد من هذا الفتح فتح مكة ، فقد أبعد النجمة ، وأخطأ فأخش ، فإن يوم الفتح ، قد قبل رسول الله ﷺ إسلام الطلقاء وقد كانوا قريبا من ألفين . ولو كان المراد فتح مكة ، لما قبل إسلامهم لقوله تعالى^(٣) (قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ) وإنما المراد الفتح الذى هو القضاء والفصل كقوله^(٤) (فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا) وقوله^(٥) (قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ) الآية وقال تعالى^(٦) (وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) وقال تعالى^(٧) (إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَ كُفُّ الْفَتْحِ) .

(١) [٨٠ / عبس / ٢٤ و ٢٥] . (٢) [٤٠ / غافر / ٨٣] .

(٣) [٣٢ / السجدة / ٢٩] . (٤) [٢٦ / الشعراء / ١١٨] .

(٥) [٣٤ / سبأ / ٢٦] . (٦) [١٤ / إبراهيم / ١٥] .

(٧) [٨ / الأنفال / ١٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[۳۰] (فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَضِرُونَ)

« فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ » أى عن المشركين ، ولا تبال بهم ، وبلغ ما أنزل إليك من ربك « وَانْتَظِرْ » أى النصره عليهم . فإن الله سينجز لك ما وعدك ، إنه لا يخلف الميعاد « إِنَّهُمْ مُنْتَضِرُونَ » أى ما فى نفوسهم . كقوله تعالى ^(۱) (أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ) ^(۲) (وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَّاءُ) أى وسيجدون مغبة انتظارهم من وبيل عقابه تعالى وأليم عذابه بهم .

(۱) [۵۲ / الطور / ۳۰] . (۲) [۹ / التوبة / ۹۸] .